رسالة في الحث على اجتماع كلمة المسلمين وذم التفرق والاختلاف

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين وعليه أتوكل

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن الله تعالى خلق خلقه من العدم وأوجدهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا؛ ليعبدوه وحده لا شريك له ويطيعوه ويتقوه، ومدار ذكره ومرجعه على أداء حقوقه وحقوق عباده اللازمة والمستحبة التي شرعها في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، وهي شعب كثيرة وأقسام:

فمنها: ما هو أصول.

ومنها: ما هو أحكام.

ومنها: ما هو قواعد كلية تندرج تحت كثير من الأحكام الجزئية.

ومنها: مقاصد ومطالب.

ومنها: ما هو موصل إليها، وكلها ترجع إلى تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها.

فمن أعظم الأوامر الإلهية والشرائع السماوية والوصايا النبوية الاعتصام بحبل الله جميعا، واتفاق كلمة المسلمين واجتماعهم وائتلافهم، والحث على هذا بكل طريق موصول إليه من الأعمال والأقوال، والتعاون على ذلك قولا وفعلا، والنهي عن التفرق والاختلاف وتشتيت شمل المسلمين، والزجر عن جميع الطرق الموصلة إليه بحسب

القدرة والإمكان، وقد دل على هذا الأصل العظيم الكتاب والسنة وإجماع الأنبياء والمرسلين وأتباعهم إلى يوم الدين، قال تعالى آمرًا عباده بالتمسك بحبله الذي هو دينه والاجتماع عليه، ناهيا لهم عن التفرق والاختلاف، ممتنا على عباده بتوفيقه لهم لذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٢، ١٠٣] الآية.

وقال تعالى ناهيا عن التنازع والاختلاف مخبرًا أنه سبب للفشل وعدم النصر على الأعداء: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وقال مذكرا عباده بنعمته التي لا يقدر عليها إلا العزيز الحكيم: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣] الآية. وقال ذاما المنافقين بتباغضهم وتفرق قلوبهم، ولو اجتمعت أجسامهم: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: ١٤]. وقال جل جلاله ممتنا على رسوله بلينه للمخالطين الداعي لتأليفهم واجتماعهم وعدم تفرقهم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] الآية. ووصف الله المؤمنين بأنهم ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. ووصف رسوله بأنه ﴿رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]. وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

ومن أعظم البر السعي في جمع كلمة المسلمين واتفاقهم بكل طريق، كما أن السعي في تفريق كلمة المسلمين من أعظم التعاون على الإثم والعدوان.

وقد قص الله علينا في كتابه سيرة الرسل الذين بعثهم لتبليغ رسالاته وذكر نصحهم لأممهم وحرصهم على اجتماعهم على الإسلام ونهيهم عن التفرق والاختلاف مما هو كثير في القرآن.

وكذلك النبي ﷺ قد أبدى في هذا الأصل وأعاد، وأمر باجتماع العباد ونهى عن التفرق المفضي إلى الفساد، فقال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: **«لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه»**(١). **وفي صحيح مسلم** عن تميم الداري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«الدين النصيحة»**. قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: **«لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»**(٢).

ومن أعظم النصيحة للمسلمين السعي في تأليف قلوبهم واجتماعهم ونهيهم عن التفرق. وقال ﷺ في الحديث المتفق عليه للأنصار منبها لهم بمنة الله عليهم بهدايتهم واجتماعهم وغناهم بسببه: **«يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضُلالا فهداكم الله بي، متفرقين فجمعكم الله بي، عالة فأغناكم الله بي»**(٣). كلما قال شيئا قالوا الله ورسوله أمن، وقال النبي ﷺ محذرًا لأصحابه عن تبليغه الكلام المغير للقلوب: **«لا يبلغني أحد عن أحد شيئا فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»**(٤). وقال لما شاوره بعض أصحابه في قتل بعض المنافقين: **«لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه»**(٥). أي لما فيه من التنفير عن الإسلام لمن لم يسلم، فتركهم وهم مستحقون للقتل تأليفا، وكان ﷺ يوصي من يبعثه للدعاية لدين الإسلام وتعليم الشرائع فيقول: **«بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا وتطاوعوا ولا تختلفوا»**(٦). وقال: **«ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم»**(٧). فأخبر أن الاختلاف الظاهر سبب لاختلاف الباطن، وقال ﷺ:

(١) البخاري(٦٠٦٦)، مسلم (٢٥٦٤).
(٢) مسلم(٥٥).
(٣) البخاري (٤٣٣٠)، مسلم(١٠٦١).
(٤) أحمد (٣٧٥٩)، أبوداود (٤٨٦٠)، الترمذي(٣٨٩٦).
(٥) البخاري (٤٩٠٧)، مسلم (٢٥٨٤).
(٦) البخاري (٦٩)، مسلم (١٧٣٤) بدون جملة **«وتطاوعوا ولا تختلفوا»**.
(٧) مسلم (٤٣٢).

«إنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم»[1].

وكل هذه الأحاديث في الصحيح، وتواتر عنه ﷺ النهي عن الخروج على ولاة الأمور والسمع والطاعة لهم، وإن ظلموا وعصوا[2]، وما ذاك إلا لما في الخروج عليهم من الشر العظيم.

وقد أمر الله ورسوله باجتماع المسلمين في كثير من العبادات كالحج والأعياد والجمعة والجماعة لما في اجتماعهم من التوادد والتواصل وعدم التقاطع، ونهى الله ورسوله عن الغيبة والنميمة والسعاية والتقاطع والخيانة والحسد والحقد ونحوها لما فيها من الفساد وتشتت العباد، وأمر بالإصلاح بين الناس بكل طريق حتى إنه أباح الكذب المتوصل به للإصلاح لما فيه من الصلاح.

وبالجملة فمن تأمل سيرة الرسول ﷺ في معاملاته للخلق مسلمهم وكافرهم، قريبهم وبعيدهم من لين الجانب، والسماحة التامة، والخلق العظيم بالعفو عن أهل الجرائم وتأليف الخلق للدخول في دين الإسلام، وإعطاء المؤلفة قلوبهم ليسلموا ويقوى إيمانهم، وتركه كل ما فيه تنفير حتى إنه ﷺ يترك الأفضل الأكمل ويفعل ما دونه مراعاة لقلوب الخلق، وقد كان هم في بنيان الكعبة على قواعد إبراهيم فقال لعائشة: **«لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لنقضت الكعبة وجعلتها على قواعد إبراهيم»**[3].

فمن تأمل هذا عرف أنه ﷺ بعث بالحنيفية السمحة[4]، فإذا علمت ذلك عرفت أن من أهم قواعد الدين وأجل شرائع المرسلين النصيحة لكافة الأمة والسعي في جمع كلمة المسلمين وحصول التآلف بينهم وإزالة ما بينهم من التباغض والتشاحن والإحن.

---

(١) البخاري (٧٢٨٨)، مسلم (١٣٣٧).

(٢) البخاري (٧٠٥٢)، مسلم (١٨٤٧).

(٣) البخاري (١٥٨٣)، مسلم (١٣٣٣).

(٤) أحمد (٢٢٢٩١).

وأن هذا الأصل من أعظم معروف يؤمر به، وإضاعته من أعظم منكر ينهى عنه، وأن هذا من فروض الأعيان اللازمة لكل الأمة علمائها وولاتها وعوامها؛ بل هي قاعدة لا يتم الإيمان إلا بها فتجب مراعاتها علما وعملا، وإنما كان الأمر كذلك لما في ذلك من المصالح الدينية والدنيوية التي لا يمكن حصرها وفي إضاعته من المضار الدينية والدنيوية مالا يمكن عدها فلذلك عقدت لهذا فصلين.



فصل

في بعض مفاسد الاختلاف والتنازع والتباغض والتهاجر ومضارها

لا يستريب عاقل أن الله تبارك وتعالى لم ينهنا عن أمر من الأمور إلا وفيه من المفاسد العامة والخاصة ما أوجبته حكمته ورحمته. فأول مضار التشاحن والتباغض والاختلاف: إضاعة هذا الأصل العظيم. ومعصيته الله ورسوله الموجب للعقاب. وحرمان الثواب ونقصان الإيمان. وحصول الحسرة والخسران. وإهمال ما دلت عليه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

ومنها: ما يترتب عليها من الاقتتال والاختصام والموالاة والمعاداة التي تجعل المسلمين فرقا كل فريق يريد نصرة قوله بحق أو باطل؛ فيحصل بذلك من ارتكاب الخطأ والضلال والهوى من المفاسد العامة والخاصة ما لا يعلمه إلا الله.

ويترتب على ذلك ترك الحق الذي مع المنازع نصرة للهوى وبغضا للشخص الذي جاء به، فيوجب له بغض ما معه من الحق، ويحصل بسبب ذلك من الغيبة والنميمة والسعاية ما هو من أكبر المعاصي.

ويتحير مريد الهدى، حسنُ القصد إذا كان قليل البصيرة فلا يهتدي لسبيله، ولا يدري أي الطائفتين يتبعه في قيله.

ويجد سيئ القصد المتبع لهواه مجالًا يجول فيه بأعراض العلماء والصالحين وولاة أمور المسلمين، فينتسب بقوله لطائفة ويتلبس بلباسها على قلب منافق مكار مخادع، فيتوصل بذلك إلى مقاصده الخبيثة ويبذر في قلوب من انتسب إليهم ما يقدر عليه من البذور التي

تنتج الخزي والفضيحة، وليس الأسف على هلاك من هذا شأنه وهذا غاية قصده، فإنه بسبيل من هلك، وإنما الأسف كل الأسف لمن يلقي إليه سمعه ويمكنه من قلبه ولبه، ويصغي إليه ظانا نصحه وهو في الحقيقة أكبر عدو غاش، هذا بعض ما أنتجه الاختلاف.

ومنها: أنه يستدرج بالمفترقين إلى المباعدة والمهاجرة حتى لا يتعلم بعضهم من بعض ولا ينصح بعضهم بعضا، فيضيع من المصالح التي هم بصددها لو كانوا مجتمعين ما هو من أهم الواجبات وأكبر القربات وأجل الطاعات إلى غير ذلك من طمع أعدائهم بهم لتفرق كلمتهم وتشتت أمرهم.



فصل

في فوائد اتفاق المسلمين وتحابهم والسعي في ذلك

وهذا هو المطلوب المقصود الذي جرى الكلام لأجله، وهو المقصد الذي فيه يرغب المصلحون وإليه شمر المشمرون، وبه تنافس المتنافسون، ولمثله فليعمل العاملون لما اشتمل عليه من المصالح العظيمة والمهمات الجسيمة.

وبالجملة فجميع المفاسد التي ذكرت، والتي لم تذكر في مفاسد التهاجر والتباغض والتدابر بهذا الأمر تزول، وتصل بصاحبها إلى كل خير وتئول، فبه تحصل الخيرات وتنزل البركات وتستجاب الدعوات وتبدل السيئات بالحسنات.

وباتفاق كلمة المسلمين يجتمع شمل الدين، ويحصل لهم بذلك في الأرض العز والتمكين، وبه يزيد الإسلام والإيمان؛ لأن الإيمان عند أهل السنة والجماعة قول وعمل يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

والسعي في هذا من أكبر الطاعات فيزيد به الإيمان درجات وبالتآلف والاجتماع يحصل التعاون على جميع خصال البر والتقوى والخير قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

وقال النبي ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والقيام والصدقة؟ قالوا: بلى يا

رسول الله قال: **إصلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هي الحالقة**»[1]. وفي رواية: «**لا أقول حالقة الشعر، ولكن حالقة الدين**».

فأي درجة أعظم من هذه الدرجة التي زاد بها على أمهات الفضائل؛ الصلاة والصيام والصدقة، وقال النبي ﷺ: «**والله لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أفلا أخبركم بشيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم**»[2].

فرتب ﷺ دخول الجنة على وجود الإيمان، ورتب وجود الإيمان على حصول التحاب الذي هو سبب الائتلاف، ونبه على الدواء لهذا بإفشاء السلام، لأن لين الكلام الذي من أجله إفشاء السلام من أكبر الدواعي لذلك.



(١) أبو داود (٤٩١٩)، الترمذي (٢٥٠٩).

(٢) مسلم (٥٤).

فصل

إذا علم هذا فالواجب على المسلمين عموما وعلى أهل العلم خصوصا أن يسعوا في هذا الأمر، ويتحملوا من أجله المشاق، ويبذلوا جهدهم وطاقتهم في حصول التوادد وعدم التقاطع والتهاجر، ويرغبوا غيرهم فيه امتثالا لأمر الله وسعيا في محبوبه، وطلبا للزلفى لديه فيوطنوا أنفسهم على ما ينالهم من الناس من الأذية القولية والفعلية مع أنها ستنقلب إن شاء الله راحة ومواصلة دينية.

ويقابلون المسيء إليهم بالعفو عنه والصفح وسلامة النفس ولا يعاملونه بما عاملهم به؛ بل إذا عاملهم بالبغض عاملوه بالمحبة وإن عاملهم بالأذى عاملوه بالإحسان، وإن عاملهم بالهجر وترك السلام عاملوه ببذل السلام والبشاشة ولين الكلام والدعاء له بظهر الغيب، ولا يطيعوا أنفسهم الأمارة بالسوء بمعاملته من جنس ما عاملهم به فليست هذه حالة الأنبياء وأتباعهم؛ بل حالهم العفو والصفح عن أهل الجرائم كما ذكر النبي ﷺ عن حال النبي الذي ضربه قومه حين دعاهم إلى الله حتى أدموه، فجعل يمسح الدم عن وجهه، ويقول: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»(١).

هذا والله الفخر الكامل الذي يبني لصاحبه في الدنيا الثناء الجميل، وفي الآخرة الثواب الجزيل قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: ٢]. ويحث على مقابلة المسيء بالعفو في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

---

(١) البخاري (٣٤٧٧)، مسلم (١٧٩٢).

فإذا وفق المسلمون لهذه الحالة جمع الله شملهم وألف بين قلوبهم وهداهم سبل السلام وأخرجهم من ظلمات الجهل والظلم والضلال إلى نور العلم والعدل والإيمان. ويجب عليهم إذا رأوا صاحب هوى يريد أن يشق عصا المسلمين ويفرق بينهم لنيل غرض من أغراضه الفاسدة أن يقمعوه وينصحوه ولا يلتفتوا لقوله، فإن من هذا حاله أكبر الأعداء.

وأن يحرصوا غاية الحرص على ستر عورات المسلمين وعدم تتبعها؛ خصوصا ما يصدر من رؤساء الدين والعلماء وطلبة العلم الذين لهم الحق الأكبر على جميع المسلمين بما قاموا به من علم الشرع وتعليمه، الذين لولاهم ما عرف الناس أمر دينهم ومعاملاتهم.

فلولاهم لم يعرفوا كيف يصلون ويزكون ويصومون ويحجون؛ بل لا يعرفون يبيعون ويشترون؛ بل لولاهم لكان الناس كالبهائم لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرًا ولا عرفوا حلالا ولا حراما فالواجب على المسلمين احترامهم وكف الشر عنهم وقمع من يريدهم بأذى والتغاضي مما يصدر منهم بستره وعدم نشره لأن نشره فساد عريض.

واعلم أن للخير والشر علامات يعرف بها العبد:

فعلامة سعادة الإنسان: أن تراه قاصدا للخير لكافة المسلمين حريصا على هدايتهم ونصيحتهم بما يقدر عليه من أنواع النصح مؤثرا لستر عوراتهم وعدم إشاعتها قاصدا بذلك وجه الله والدار الآخرة.

وعلامة شقاوة العبد: أن تراه يسعى بين الناس بالغيبة والنميمة ويتتبع عثراتهم ويتطلع على عوراتهم، فإذا سمع بشيء صدر منهم من المكروه أشاعه وأذاعه؛ بل ربما نشر معه شرحا من ابتداعه، فهذا العبد بشر المنازل عند الله مقيت عنده متعرض لمساخطه يوشك أن يفضحه في دنياه قبل أخراه إن لم يتدارك نفسه بالتوبة النصوح وتبديل السيئات بالحسنات.

فحقيق بمن لنفسه عنده قيمة أن يربأ بها عن هذه الخصلة الذميمة، ويتأمل معنى قوله ﷺ: **«من ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة»**[1]. وقوله ﷺ: **«يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته»**[2]. هذا الوعيد الشديد في عموم المسلمين، وأما العلماء والصالحون فالوقوع بهم أقبح وأقبح، وهو علامة على معاداة الله ومحاربته؛ لأن الله قال على لسان رسوله ﷺ: **«من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب»**[3].

وقد قال بعض السلف: إن لم يكونوا العلماء أولياء الله فلا أدري من هم أولياؤه.

وصدق رحمه الله، فإن ولاية الله إنما تنال بحسب قيام العبد بأوامر الله تعالى، ولأهل العلم من هذا أكبر نصيب، فإنه لا يكاد ينال العبد طرفا من العلم يصير فيه رئيسا حتى يجتهد ويجد ويمضي عليه زمن طويل وهو متجرد لطلب العلم تاركا لما عليه أهل الدنيا مستغرقا لأكثر أوقاته وأشرف ساعته بالاشتغال بالعلم الذي هو بنفسه أجل الطاعات، وهم أحرى بولاية الله من غيرهم؛ فكيف يمكّن بالقدح فيهم من غلبت عليه الشقاوة وأفنى زمانه بالقيل والقال ولم يضرب مع الصالحين بسهم من نفائس الأعمال، فلا تراه باحثا عن أمر دينه ولا مجالسا للعلماء على وجه الاستفادة منهم؛ بل لو سئل عن أدنى مسألة من أمر دينه لم ينطق ببنت شفة[4]، ومع هذا فقد أطلق لسانه بثلب العلماء وأهل الدين زاعما فيما قاله إنه مصيب؛ نعم قد أصاب طريق أهل الشر، والتحق بالحيوانات الخسيسة التي تترك الأطعمة الطيبة وتذهب إلى الجيفة ونحوها من الأطعمة الخسيسة لتركه المحاسن وإقباله على ما ظنه مساوئ وانحرف عن طريق أهل الخير فليس بكفؤ

(١) البخاري (٢٤٤٢)، مسلم (٢٥٨٠).

(٢) أحمد (١٩٧٧٦)، أبو داود (٤٨٨٠).

(٣) البخاري (٦٥٠٢).

(٤) أي: بكلمة.

أن يذكر معهم، وإنما يذكر لئلا يغتر به المغترون ويقع بشبكته الجاهلون، ولعله أن يرتدع ويتوب ويقلع إلى ربه وينيب، فليس على طريق التوبة حجاب، ولا ذنب إلا وراءه مغفرة الملك الوهاب لمن تاب وأناب.



فصل

ومن أعظم ما يجب الاعتناء به على أهل العلم ألا يجعلوا الاختلاف بينهم في المسائل الدينية التي لا يخرج المخالف فيها إلى البدع أو الشرك - سببا وداعيا إلى التفرق وتشتيت القلوب وموجبا للقدح والطعن بسببها والموالاة والمعاداة عليها، فإن هذا ظلم وتعد لا يحل بإجماع المسلمين، فما زال السلف الصالح من الصحابة والتابعين فمن بعدهم يختلفون في مسائل الدين، ولا ينكر بعضهم على بعض ولا يوجب بعضهم على بعض أن يتبعه وإلا ضلله، فإن هذه مرتبة لا تصلح إلا للرسل فهم الذين يضلل مخالفهم، وأما من عداهم فلم تضمن له العصمة.

ومن رحمة الله بعباده أن جعل اختلاف هذه الأمة رحمة ليثيب المصيب ويعفو عن المخطئ واتفاقهم حجة ونجاة وعصمة.

فالواجب على أهل العلم أن يبذلوا جهدهم بتحري الحق والصواب، وألا يضللوا المخالف لهم مثلهم أخطأ أو أصاب. وهذا في جميع المسائل التي تعارضت فيها أقوال سلف الأمة بحسب ما أداهم إليه اجتهادهم:

وذلك مثل من يرى أن الماء لا ينجس إلا بالتغير بالنجاسة لا يجوز له القدح فيمن يرى أن ما لم يبلغ قلتين ينجس بمجرد الملاقاة وبالعكس. وكذلك من يرى أن الماء المستعمل في رفع الحدث يصير طاهرا غير مطهر لا يضلل من يراه طاهرا مطهرا وبالعكس.

ولا من يرى أن الصلاة في الثوب النجس ناسيا تعاد على من لا يرى الإعادة وبالعكس. ولا من يرى وجوب صوم ليلة الثلاثين من شعبان في الغيم على من يرى استحباب الفطر

أو إباحته ولا بالعكس. ولا من يبيح فعل النوافل ذوات الأسباب في أوقات النهي على من يمنعها وبالعكس.

وأمثال هذه المسائل التي لم يزل الخلاف فيها بين السلف وإلى الآن، فلا يحل لمن يرى أحد القولين فيها أن ينكر على غيره على وجه القدح به، فإن هذا ظلم لا يجوز؛ بل وظيفة أهل العلم في مثل هذه المسائل الخلافية أن يبينوا ما يرون أنه الصحيح بحسب قدرتهم بالدليل الشرعي الذي هو الكتاب والسنة والإجماع والاعتبار بالقياس والحكم [وضعف العقل[ ][1] بالدليل الشرعي][2]، وأن يردعوا من جعل هذا الخلاف سلما للاختلاف؛ لأنه بعيد عن الإنصاف؛ نعم إن ظهر من أحد من أهل العلم مخالفة بينة لدليل شرعي صريح، فإنه يجب نصحه، ويبين له الدليل الشرعي بأقرب الطرق، ولا يجعل تأنيبه أو غيبته في المجالس بدلا من نصحه، فليست هذه طريقة أهل الإنصاف، بل طريقتهم النصيحة سرا وعدم إشاعة الفاحشة.

وبالجملة فالواجب على أهل العلم وغيرهم :

السعي في معرفة الحق. والاجتهاد في تنفيذه. والعمل به والتعاون على ذلك.

وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه سواء وافقه أو خالفه، فكما أنه إذا وقع منه خطأ وزلل لم يحب اطلاع أحد عليه، بل يحرص على ستر نفسه؛ فكذلك ينبغي أن ينزل أخاه منه بهذه المنزلة.

وأن يحمل ما يصدر منه على أحسن محمل، فإن الجزاء من جنس العمل، فمن كان عمله مع إخوانه هكذا؛ ستر الله عليه بأسباب يعلمها وأسباب لا يعلمها سترا لا يحصل لمن لم يكن بهذه المثابة، فكما تدين تدان جزاء وفاقا، فنسأل الله أن يوفقنا وإخواننا المسلمين لما يحبه

(١) كلمة لم تتضح لنا.

(٢) لعل في العبارة سقطا ولم يتضح لي.

ويرضاه، وأن يصلح أحوال المسلمين ويؤلف بين قلوبهم ويهديهم سبل السلام، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وسلم.



فائدة مهمة

اعلم أنه ينبغي للمعلم أن يفتح للمتعلمين باب البحث والمراجعة والانتقاء في المسائل العلمية، فإن في ذلك من المصالح الدينية ما لا يدخل تحت الحصر.

فمنها أن ذلك من باب التعاون على البر والتقوى لأن مصالح الدارين لا تتم إلا بالتعاون عليها، فالمسائل العلمية لا تتم إلا بذلك وهي بدونه في غاية النقص.

ومنها: أن ذلك يوجب لهم التهذب والتدرب على المعارضة والاستدلال والترجيح والتضعيف فتتقد بذلك أفكارهم ويحصل لهم ملكة يقتدرون بها على الإيراد والجواب، فبالامتحان تنصقل الأذهان.

ومنها: أن في إهمال المعلم لهذا، وجبل المتعلمين على تلقي جميع ما يقوله بالقبول وعدم المعارضة له فيما تحققوا وظنوا أو شكوا فيه، فيه غلق لباب الفائدة للمعلم والمتعلم.

أما المتعلم فظاهر، فإنه إذا لم يعارض ويبحث لم يهتد إلى الصواب إلا في المسائل الواضحة البسيطة، وأما المسائل التي تحتاج إلى تحرير وتقرير وجواب وإيراد فبابها عليه مسدود؛ بل ربما أن المتعلم الذي قد تقررت عنده المسألة على صوابها إذا رأى معلمه قد خالف ما عنده ولم تحصل منه المباحثة المذكورة قد يشك فيما علمه أو يعتقد خلاف ما ظنه من الصواب كما هو الواقع.

وهذه الحالة إذا استمر عليها المتعلمون خمدت أذهانهم وأفكارهم فيكون الذكي الفطن جامد الذهن خالي القريحة، وذلك أن القوة المفكرة إذا لم تشتغل بالتفكر والتذكر وإعمالها فيما هي مهيئة له بطل عملها بمنزلة بقية الجوارح التي إذا توالى عليها السكون والكسل

لم تنفع صاحبها وأسرع إليها الفساد، فإذا أعملت فيما هي مستعدة له ترتبت وازدادت وترقت على الدوام.

وأما غلقه لباب الفائدة عن المعلم فأظهر وأظهر، فإنه يسد على نفسه أبوابا وطرقا من الخير قد كان يمكنه تحصيلها بأسهل شيء، فإنه إذا حصلت المباحثة والمراجعة المذكورة بينه وبين المتعلمين لم يعدم بذلك أن يستفيد منهم علما حادثا أو يتذكر علما منسيا أو يتضح له ما كان مشكلا أو يتوقف بسبب ذلك عن قول كان يجزم به على خلاف الصواب.

ومنها: أنه يوجب له التيقظ والاحتراز فيما يقوله وينقله، فإنه إذا علم أنه إذا قال قولا أو نقل شيئا لم يعارض ولم يوقف بوجهه؛ بل يقبل على أي وجه كان - تساهل في ذلك، فقال ونقل ما اتفق له غير مراع للصواب، فيحصل منه الخطأ والغلط شيء كثير. وإذا علم أنه يعارض تنبه وتحرز وتحرى في قوله ونقله بحسب قدرته.

ومنها: أنه يوجب له كثرة المطالعة والبحث والتفتيش والتنبه لكل ما يخطر بباله أنه سيتكلم به.

ومنها: أنه يتحسن بذلك خلقه، ويصير له ملكة لتحمل ما يرد عليه من الاعتراضات، فإن صاحب المنصب العالي على غير الذي يرد غيره تبعا له لا يكاد يتحمل ممن دونه إذا عارضه؛ بل منصبه يوجب له النفرة من الاعتراض عليه ممن هو مثله أو فوقه؛ فكيف بمن هو دونه فيخاف عليه لسبب ذلك من رد الحق ونصر الباطل الذي يعلمه ويغلب هذا السبب ما هو عليه من الديانة كما هو مشاهد.

ولهذا من أدب المعارض لمن هذه حاله إذا استبان للمعارض أن الصواب معه ألا يكون ذلك بصورة المعارضة؛ بل بصورة السؤال والاسترشاد والتنبيه على الصواب بألطف الطرق التي توجب القبول، فإذا وطن نفسه على حصول المعارضة وعدم المبالاة بها بل الحرص عليها، وأوعز للمتعلمين أن يعارضوه بما يرون أنه معارض لقوله تدرب بذلك وصار له ملكة

قوية على ذلك بحيث لا يبالي بالمعارضة من صغير وكبير؛ بل قد تراه يقول القول في الملأ جازما به ثم يظهر له عكس ما جزم به فيبديه غير خجل ولا مكترث بل قصده الوصول إلى الحق والنصيحة للخلق، وحبذا حالة توصل العبد إلى هذا الخلق الذي لا يلقاه إلا ذو حظ عظيم.

ومنها: أن المعلم إذا هذب المتعلمين على هذه الطريقة الحسنة أو غيرها من الطرق الحسنة صار سببا لاستمرار هذه الحال فيمن تعلم منهم وتربى بهم لأنهم يربونه على ما تربوا عليه فيحصل له من الخير ما لا يعلمه إلا الله.

ومنها: أنه يعرف بذلك مراتبهم ودرجاتهم في التحصيل، ومعرفة مراتب الناس من أهم الأمور خصوصا من له التدبير فيهم فإنه يحتاج، بل يضطر إلى ذلك لأجل عمله فيهم لأن عمله لا يتم إلا بتنزيلهم منازلهم وإعطاء كل ما يستحقه.

ومنها: أن ذلك يوجب الثقة بقوله لأن من وفق لهذه الحالة وفق للصواب.

وأما من سد على نفسه هذا الباب، فقد حصل على غاية الحرمان من العلم والعمل والثواب والخطر العظيم بسبب سوء الخلق الذي يؤثر ما يؤثر وسوء التعليم وقلة النتيجة وعدم النصيحة التي هي أس التعليم؛ بل أس كل عمل، والإعجاب بالنفس وعدم الثقة بقوله، وغير ذلك، فنسأل الله توفيقا يوفقنا إلى الصواب ويصرفنا عن كل شر.

تم الكتاب، والحمد لله على يد معلقه الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين اللهم صل على محمد وسلم (٦ جمادى ١٣٤٣هـ).

